الباب الخامس

دور الانتقال

١

ذهبت دولة الأمويين وأتت دولة العباسيين ، وحلت بغداد العراقية محل دمشق الشآمية ، وتحولت العاصمة من الغرب إلى الشرق . وقد اعتمد العباسيون فى الوصول إلى الحكم على الخراسانيين والعراقيين مع العناصر العربية الثائرة ، كما اعتمد الأمويون على الشآميين مع الثائرين من العرب .

ويصور بعض المؤرخين هذا الانتقال تصويراً يشعر بأن الحكم أصبح فارسيًّا بعد أن كان عربيًّا ، وأن العباسيين انسلخوا من جلودهم ولبسوا جلوداً غيرها ! ولم لا يكون الأمر كذلك ؟ ألم يكن أبو مسلم الخراسانى زعيم الحركة العباسية وقائدها المظفر ؟ ألم يصطنع العباسيون الفرس فى الوزارة والوظائف العامة ؟ ألم يضفوا على أنفسهم وعلى مظاهر حياتهم الأبهة الساسانية ؟ ألم يأخذوا بالكثير من تقاليد الفرس ؟ ألم ينبذوا التعصب الأموى للعرب ، ويسووا بينهم وبين العجم فى الحقوق المدنية والسياسية ، بل يؤثروا العجم على العرب ؟

والحق أن فى ذلك مبالغة مصدرها إغفال الربط بين الماضى والحاضر ، ونسيان التطور الطبيعى للحضارة العربية ، وعدم التفريق بين ما كان وما قصد إلى أن يكون . فلا ريب أن العباسيين لم يكونوا ليقصدوا إلى الغاية التى انتهى إليها الحكم فى عهدهم الطويل ، وأن القرن الأول من حكمهم كان يمتاز بميزات العهد الأموى الأساسية ؛ فكان الخليفة مصدر جميع السلطات ، وكان الوزير يصدر عنه فى أعماله ، وكان نظام الجيش هو النظام الأموى ، بل كانت عمارة بغداد هى العمارة الدمشقية التى اختارها العرب وصبغوها بصبغتهم البدوية ، كما كان الترف سائداً فى العصر الأموى سيادته فى أوائل القرن العباسى .

وصلة العرب القديمة بالعراق وخراسان ليست أوهَنَ من صلتهم بالشام ؛ فقد رحلت القبائل

العربية منذ القدم إلى تلك البقاع ، واتصل العرب بأهلها اتصالاً وثيقاً ولم تكن بغداد أبعد عن هامش الجزيرة من دمشق . وكان موقع البحر الأبيض غرب الجزيرة ، وتوسع العرب إلى الشرق ، وغارات الروم على الشام – يؤذن ، مع اصطناع الفرس فى الحركة العباسية ، باختيار بغداد عاصمة للمملكة الإسلامية . وكان ينزل ببغداد أول تأسيسها عسكر مضريون وعسكر يمنيون مع العسكر الخراسانيين ، كما تقسمت هذه العناصر الثلاثة أحياءها . ولعل اصطناع هؤلاء العسكر كان من أسبابه فقدُ العرب مقوماتهم الحربية الأولى بالحضارة ، كما خشى عمر ، وبالخلافات التى تشعبتهم . ولعله لم يزد كثيراً عن استعانة الملوك والولاة بالمرتزقة فى جميع العصور . غير أن الفرس لم يكونوا عنصراً أجنبيًّا فى ذلك الوقت من الناحية النظرية إذ نالوا بالإسلام جميع الحقوق العربية والإسلامية كما يقضى الدين ، وإن لم تنفذ هذه القاعدة فى عهد الأمويين على النحو الذى نفذت به فى عهد العباسيين . وكانت الوزارة تطوراً طبيعيا للكتابة التى بدأت فى عهد الرسول وتمت فى عهد خلفائه واكتملت فى عهد الأمويين ، فهى نظام عربى فى أساسه ، بل فى اسمه واشتقاقه كذلك كما يرى بعض المحققين المحدثين ، وإن صار بعد تطوره عظيم الشبه بالنظام الفارسى . وتأثير الفرس فى العرب قديم يرجع إلى العهد الجاهلى ، ويستقيم مع طبيعة الجوار وما ينجم عنه .

والسفاح قد ولى العرب حكم الولايات ، ولم يجد المنصور بدًّا من القضاء على أبى مسلم الخراسانى مقاومةً للطغيان الأجنبى . وكان البرامكة يفهمون وظيفتهم أول أمرها فهماً دقيقاً ويؤدونها فى الحدود التى رسمها الخلفاء لهم ، فعاونوا على السير بالإمبراطورية الإسلامية المتعددة العناصر . ولعلهم جاوزوا هذه الحدود فحلت بهم النكبة ، وكان فى سقوطهم معنى الغلبة للعنصر العربى ، والنجاة من السيادة الفارسية التى اتهم المنصور خالداً بالعمل لها ، كما أدى هذا السقوط إلى ظهور التنازع بين هذين العاملين . وهذا الظهور قد تجلى فى الخلاف بين الأمين والمأمون ؛ إذ وقف العرب مع الأمين ابن العربية ، والفرس مع المأمون ابن الفارسية .

فتغلب العنصر الفارسى أتى متأخراً ، ولم يقصد إليه مؤسسو الدولة الذين استعانوا بهم على بلوغ غرضهم السياسى ، كما استعان عمر فى حروبه بالنصارى ، وكما استعان الأمويون بالشآميين واليمنيين . وقد ساعد على هذا التغلب تشبث الفرس بإحياء مجدهم الذاهب ، وعلمهم بالإدارة ، وثقافتهم ، وظهورهم كعنصر أساسى ضخم من عناصر الإمبراطورية الإسلامية .

ولعل الخلفاء العباسيين كانوا يقومون على رأس الفكرة العربية ، فيذهبون ضحية الشره الأجنبى ، ويتوالى الفتك بهم .

وقد وجد الفرس أن من أسباب التقدم فى هذه الدولة العربية الامتياز فى العلم بلسانها فتعلموا العربية ، وبرّزوا فيها ، وكان منهم صفوة الشعراء والكتاب والمؤلفين ؛ وبهذا نازعوا العرب فى أول مظهر لهم وهو اللسان . ولعل تراخى العرب فى هذا الباب ، كما يتراخى المنتصر فى كثير من الأحيان ، وأنفتهم من التوظف ومن التوفر على الدرس ، من الأسباب التى مهدت لسيادة هذه العناصر الأجنبية فى وقت كان العلم والثقافة هما الطريق إلى التفوق بين العرب والعجم على السواء .

وكثرة المظاهر الفارسية فى نظام الحكم والحياة لم تتم إلا فى عهد المأمون وكان بعضها فى العصر الأموى . وضعف الخلفاء لم يظهر إلا بعد أن اصطنع المعتضد الترك ، فاستبدوا بشئون الحكم ، وأدى الأمر إلى انحلال الإمبراطورية الإسلامية واستقلال نواحيها ، وظهور العامل الوطنى الإقليمى بعد العامل الإسلامى .

وهكذا كان العصر العباسى الأول وشطر من العصر الثانى ، إلى ما يقرب من نهاية القرن الثالث للهجرة ، دور انتقال من المعانى البدوية إلى المعانى الحضرية أو تنازع بينهما أدى إلى سيادة الثانية ؛ كما سادت المعانى الوطنية فى السياسة فانقسمت الإمبراطورية العباسية ، وإن ظل تعلقهم بالمعانى العربية وثيقاً بحكم الدين والقرآن ، وموطن الحج ، وصاحب الرسالة الذى يقدسه المسلمون فى أنحاء الأرض جميعاً .

٢

ويسير الشعر مع الحياة الاجتماعية والسياسية سيراً وثيقاً ؛ فتتوفر ألوان الشعر الأموى .. يمثل شعراء الغزل فى هذا الدور « العباس بن الأحنف » ، ويمثل شعراء الخوارج على الدولة « دِعبل ابن على الخزاعى » ، ويمثل الرجاز « عقبة بن رؤبة » ، وجمهرة الشعراء مداحون ، ومنهم من يقصد إلى الغريب ويتغنى بأصوات القدماء . ثم نجد مع هذا طرافة فى بعض الألوان الشعرية ، وقصداً إلى الجدة والتحرر من القديم .

وهذا التنازع بين القديم والحديث يبدو على أشده فى شعر الطبيعة ، وتفسره ، مع العوامل السياسية والاجتماعية ، التيارات العلمية والنقدية .

فعلماء اللغة كانوا لا يزالون يتحكمون فى الشعراء ، حتى ليقول الخليل بن أحمد : « إنما أنتم ، معشر الشعراء ، تبع لى ، وأنا سكان السفينة ، إن قرظتكم ورضيت قولكم نفقتم وإلا كسدتم ! » [١] . وكان تأخر العصر بالشاعر حاطًّا من قدره كذلك ؛ فيقول الأصمعى : « إن بشّارا خاتمة الشعراء ، والله ، لولا أن أيامه تأخرت لفضلته على كثير منهم » [٢] ، ثم يرى أن شعراء القديم قد ذهبو بخير ما فى الشعر ، ويشبّه المحدثين بالقدماء فى مقام البيان لمنزلتهم [٣] . وكان العلم بالقديم من أسباب إعجابهم بالشعر وطربهم له [٤] ؛ فكان خلف بن أبى عمرو بن العلاء وخلف الأحمر يعظمان بشاراً للغريب ويدوّنان شعره ويرويانه . وحين تنكب الشعراء المحدثون اتباع القدماء امتنع اللغويون عن تسجيل شعرهم . ولهذا ختم ابن الأعرابى القدماء بمروان بن أبى حفصة ، وأبى أن يدون شعراً لمن بعده [٥] .

وكان الغريب مدعاة لفخر بعضهم وتباهيه ، فسَلْم يزهى بغريبه ، وعقبة بن رؤبة يفخر على بشار بالغريب ، ويقول : « أنا ، والله ، وأبى فتحنا للناس باب الغريب وباب الرجز ! » ، فيتحداه بشار بأرجوزة يتخاذل عقبة أمامها [٦] . ويقول بشار : « لم أزل منذ سمعت قول امرئ القيس ، فى تشبيهه شيئين بشيئين فى بيت واحد حيث يقول :

كأن قلوب الطير رطباً ويابساً لدى وكرها العناب والحشف البالى ،

أعمل نفسى فى تشبيه شيئين بشيئين فى بيت حتى قلت :

كأن مثار النقع فوق رؤوسنا وأسيافنا ليل تهاوى كوكبه »

ويعلن قصده إلى محاكاة القدماء وتقليدهم ، فيقول عن إحدى قصائده : « بنيتها أعرابية وحشية » ، فلا يملك الرواة سوى الإعجاب بهذا المولى الذى بزّ العرب الخلص !.

وكان الخلفاء العباسيون الأولون يصطنعون الرواة ويستمعون لرواياتهم ، ويصحبونهم فى الأسفار بأحمال من كتبهم ، ويرون فى السماع للشعر القديم لذة ومتاعاً [٧] ، ويحبذون أصحاب

---

(١) الأغانى ؛ ط دار الكتب ج ٥ ص ٣٠٢ ، وط سامى : ج ٢٠ ص ١٩.

(٢) المصدر السابق : ج ٢ ص ١٤٨ .

(٣) الأغانى ط دار الكتب : ج ٧ ص ١٥٤ ، وج ٨ ص ٣٧٠ .

(٤) الفهرست لابن النديم : ص ٧ ، والبيان والتبيين : ج ١ ص ١٢٤ .

(٥) الأغانى ؛ ط سامى : ج ١٧ ص ١٦ .

(٦) هبة الأيام فيما يتعلق بأبى تمام ليوسف البديعى ؛ نشر محمود مصطفى ، ط سنة ١٩٣٤ : ص ١٧ – ٢٦ .

(٧) الأغانى : ط دار الكتب : ج ٥ ص ٣٠٢ ، ط سامى : ج ٢٠ ص ١٩ .

النزعات القديمة ، ويستمعون لفخرهم بأنفسهم على الطريقة الجاهلية .

لكن هذه النزعات القديمة العامة للنقاد والرواة ، كانت معها نزعات لتقدير البديع من بعضهم . فالأصمعى يقرر أن من أسباب فضل بشار كونه « أوسع بديعاً » ، ويؤخر مروان بن أبى حفصة لأنه « لم يتجاوز مذهب الأوائل » (١) . والرياشى يفتن بالبديع فى شعر العباس بن الأحنف (٢) . وقد أصبحت معارف بعضهم أوسع من جمع الغريب ، بل إن منهم ، كأبى عبيدة ، من ظفر بالعلم كله ، كما يقول القدماء (٣) .

وكان ، إلى جانب هذه الطائفة ، الكتاب الذين يعنون بالسهولة ، ويدعون إلى تجنّب الإغراب ، كما عالج بعض الشعراء الخطابة والترسل فَلانَ أسلُوبهم ، وقلَّ غريبهم . وكان الأجانب وأنصار الجديد فى بلاط الخلفاء والأمراء يحاربون النزعات البدوية ، ويدعون إلى التحرر منها . اعترضوا على ابن مناذر حين فخر بنفسه فى مدح الرشيد ، لكن الرشيد لم يحفل باعتراضهم (٤) .

ومدح أبو تمام أحمد بن المعتصم بقصيدته :

ما فى وقوفك ساعة من باس نقضى ذمام الأربع الأدراس

فلما قال :

إقدام عمرو فى سماحة حاتم فى حلم أحنف فى ذكاء إياس

اعترضه أبو يوسف الكندى الفيلسوف قائلاً : « الأمير فوق من وصفت ! كيف تشبه ولد أمير المؤمنين بأعراب أجلاف ، وهو أشرف منزلة وأعظم محلة !؟ » (٥) .

وكان من أسباب الجديد ظهور طائفة من الشعراء الأحرار أصحاب المذاهب النقدية . وزعيم هؤلاء أبو نواس الذى ثار على الوقوف بالأطلال واتخذ له مذهباً فى الجديد ، وسخر من اللغويين ومذهبهم . وقد نالت هذه السخرية ، مع تطور الحياة منهم . وانتهى الأمر بمصانعة الشعراء ومجاراتهم فى مذاهبهم .

وإذا كان ابن قتيبة قرر ، فى كتابه : « الشعر والشعراء » ، أن القدماء والمحدثين يجب أن

(١) المصدر السابق ، ط دار الكتب : ج ٢ ص ١٤٨ .

(٢) الأغانى ، ط دار الكتب : ج ٧ ص ١٥٤ ، وج ٨ ص ٣٧٠ .

(٣) الفهرست لابن النديم : ص ٧٩ ، والبيان والتبيين : ج ١ ص ٢٢٤ .

(٤) الأغانى ، ط ساسى : ج ١٧ ص ١٦ .

(٥) هبة الأيام : ص ١٦ – ١٧ .

ينظر إلى شعرهم بلا حساب للعصر ، وأن الشعر لا يقدر من الناحية اللغوية وإنما من الناحية الفنية ، ولخص مذاهب المحافظين فى عصره تلخيصاً حسناً ، فقال :

«ولم أقصد ، فيما ذكرته من شعر كل شاعر مختاراً له ، سبيل من قلد أو استحسن باستحسان غيره ، ولا نظرت إلى المتقدم منهم بعين الجلالة لتقدمه ، ولا المتأخر منهم بعين الاحتقار لتأخره ، بل نظرت بعين العدل إلى الطريقين ، وأعطيت كلا حقه ووفرت عليه حظه» . وبعد أن يتحدث عن المتعصّبين للقديم بلهجة التهجين لرأيهم يقول : «فكل من أتى بحسن من قول أو فعل ذكرناه له ، وأثبنا عليه به ، ولم يضعه عندنا تأخر قائله ولا حداثة سنة ، كما أن الرديء إذا ورد علينا للمتقدم أو الشريف لم يرفعه عندنا شرف صاحبه ولا تقدمه» [1]. ولا جرم أن هذه دعوة صريحة إلى تحكيم الفن ، والتحرر فى النقد من العوامل الخارجية . وكانت هذه الخطوة مقدمة لشيوع الذوق الجديد الخالص .

وكانت الحضارة الإسلامية واستقرارها وبعد الناس عن الماضى الجاهلى من أسباب الثورة على القديم والبرم بالتقليد . وكانت هذه الحضارة ذات أثر عظيم فى شعر الطبيعة ؛ ذلك بأنها وضعت أمام الشعراء نماذج فنية للطبيعة مرسومة أو مجسمة . ومن فضائل الفن إبراز المحاسن وتحبيب الناس فى جمال الطبيعة ؛ فكانت هذه النماذج الفنية للطبيعة مدعاة إلى أن يعبر عنها الشعراء بطريقتهم الفنية ، مصورة فى كلمات بعد أن كانت مصورة فى أصباغ ومواد ، وإلى أن يقبلوا على الطبيعة نفسها يستجلون محاسنها ويعبرون عنها . وفتنة الشعراء بالفن تتجلى على أتمها فى أوصافهم للقصور والتحف والبرك ؛ تلك الأوصاف التى بلغت من الروعة أسماها ، وبخاصة على لسان البحترى .

٣

ومن مظاهر القديم فى شعر الطبيعة بكاء الأطلال ، وركوب المطايا إلى الممدوح ، واصطناع الرجز فى الأغراض القديمة وما يشبهها .

فبشار زعيم المحدثين يقف بالأطلال ، مصطنعاً الأسلوب الجديد فى المعانى القديمة . والسيد الحميرى يبالغ فى التقليد للقدماء . وأبو تمام يبكى الديار ، مقدراً أنه الصلة بين القديم والحديث ، ومتحمساً له ومستخدماً البديع فيه استخدامه فى سائر شعره .

(١) الشعر والشعراء لابن قتيبة : ص ٧ .

ودعبل بن على الخزاعى يقف بمنازل آل الرسول ، ويذكر الدين والتشيع ورحيل التقوى ، بعد أن كان القدماء يذكرون الصبابة والجوى ورحيل الأحبة . والبحترى يقف بقصر المتوكل بعد قتله ، ويذكر الرياح والبلى والوحش والجآذر فى مقام الحديث عن قصر بلغ من العظمة والفن مبلغاً كبيراً ، كأنما هذه الألفاظ أصبحت رموزاً لغير مدلولاتها .

وابن الرومى قد أطال فى هذه المعانى إطالة يندر مثلها ، فقال :

هل تعرف الدار بذى الأثأب ... والمنحنى والسفحَ من كَبْكَب
بكى بها الغيث على أهلها ... بكل عين ثَرَّة المسكب
وحال من بعدهم قطره ... مِلْحاً أُجاجاً غير مستعذب
من ذاقه لم يختلج رأيه ... فى أنه دمع ولم يرتب
وظل فيه برقه كالحاً ... ورعده يُعول فى مندب
وكم سقاها الغيث إذ همْ بها ... من سَبَل كالشهد لم يقطب
وكم رأينا برقه ضاحكاً ... فيها إلى ذى مضحك أشنب
وكم سمعنا رعده ناعراً ... من طرب فيها على مطرب
دارٌ عفاها بعد سكانها ... ساف من الشَّمْأل والأزيب
وقد نرى الأرواح تهدى لنا ... نشراً من الأطيب فالأطيب
أنفاس نُوّار يمج النَّدى ... خلال روض سبط أهلب
كأنها أنفاس حُلاّلها ... ولجة الظلماء لم تنضب
طوراً وطوراً كل واهى الكلى ... يكاد يغشى الأرض بالهيدب
يعل ذات الخال ريقاً له ... كأنه من ريقها الأعذب
رَيَّا وسَقْياً أعقبت منهما ... تلك المغانى شر مستعقب
ملابسٌ ليست لها بهجة ... حيكت من البطحاء والتيرب
وعبرة للغيث مسفوحة ... إذا سقاها الأرض لم تخصب
لم تغنَ تلك الدار من بعدهم ... بمثل ذاك القصب الخَرْعب
بل عُلّلت عنهم بأشباهها ... فى الحسن من سرب ومن ربرب

ويسهب بعد هذا فى وصف البين إسهاباً .

ومواد الصورة الأساسية قديمة ؛ وهى الرياح والأمطار تجود الأطلال ، والآرام تسكن

الديار بعد رحيل أهلها . لكن ابن الرومى استطاع أن يؤلف حول هذه المواد تلك الصورة الطبيعية الرائعة للوقوف بالأطلال . فالطبيعة هى الإنسان ومظاهرها تصور على غرار مظاهر النفس البشرية ، أو قل إن الإنسان هو الطبيعة ومظاهره ليست فى الواقع إلا صدى لها وتمثيلاً لحالها . فالغيث لا يعبث بالأطلال ، كما قال القدماء ، وإنما يبكى أهلها النازحين بكاءً مر المذاق ؛ قطره ملح ، وبرقه كالح ، ورعده عويل ، وما ينشره على الأرض من لباس قاتم مغبر ، وما يدعه من الماء لا نفع فيه للأرض ولا خصب . وكان الغيث يسقيهم قبل ذلك ، أيام أهلها النازحين ، ماء حلواً كالعسل المصفى ، وكان برقه يضحك إلى أهلها ذوى الثغور العذاب ، ورعده يردد أصوات الطرب البليغ ، والريح تنشر أنفاس النوار الذكية ، ذلك النوار الذى ينفث الندى خلال الروضة الشجراء المزهرة ، والسحب تهبط الأرض فتقدم للحسناء ماء عذباً كأنه بعض رضابها . أما هذه الظباء المنتشرة بينها فليست دليل الوحشة ، كما قال غيره ، وإنما هى من حلول النظير محل النظير والشبيه مكان الشبيه .

فهو ، وإن استفاد من القدماء مواد الصورة ، فقد عرض هذه المواد أجمل عرض ، وصور بها الطبيعة تصويراً بديعاً ، وظهر تأثره بعنترة فى اصطناع صورة روضته بعينها الثّرة ، وبأوس فى تصوير السحاب دانياً من الأرض ، لكنه عرض هذا وذاك عرضاً لم يتهيأ لأيهما ، مستخدماً أساليبه الفنية فى المعانى والألفاظ . أما الألفاظ ، وهى أقل الاثنين خطراً ، فتشيع فيها ألوان البديع ، وأما المعانى فيجليها فى خيال يقربها ويجسمها حتى تبدو ملموسة . وأى مبالغة أعظم من تلك التى اصطنعها فى البيتين الثالث والرابع ، إذ تخيل الغيث دمعاً ملحاً ، ثم تناول هذا الخيال تناول الحقيقة يقرها الذوق ، ولا يرتاب فيها الحس ! .

ووقفات ابن الرومى ، وإن امتازت بالمبالغة فى الخيال وفى التتبع للمعانى والإطناب فى التصوير ، تأتى تطوراً طبيعيًّا لوقفات من قبله . وقد سبقه أبو تمام فى بعض المعانى . على أن ابن الرومى لم يمض مع الطلول إلى آخر الشوط أو كل الشوط ؛ فقد لها عنها بوصف الرياض ؛ كما لها من قبله بوصف المطايا ، فى نحو قوله :

لهوت عن وصف الطلول الدارسه بروض عذراء غير عانسة

ثم مضى فى وصف الروضة مطنباً .

وهذا التنازع بين القديم والحديث قد اتخذ شكلاً أوسع مدى من التجديد فى المعانى عند أبى نواس ، فقد ثار على الأطلال من حيث إنها موضوع شعرى يلائم المحدثين . ولعل ثورته هى

التى دفعت ابن الرومى إلى التجميل للوقوف بالأطلال ، وإلباسه ثوباً شعريًّا قشيباً .

ويتلخص مذهب أبى نواس فى أن الوقوف بالأطلال موضوع شعرى عتيق لا يصلح للحياة فى البيئة العباسية المترفة . ومن هنا وقف على الدار العباسية التى عطلها الندامى بعد أن كانوا يجتمعون فيها للشراب ، وقدر أن مثلها هو الذى يحبس به الصحاب ويجدد معهم العهد فقال :

ودارِ ندامى عطلوها وأدلجوا بهـا أثر منهم جـديد ودارس
مساحب من جر الزقاق على الثرى وأضغاث ريحان جنىّ ويابس
حبست بها صحبى وجددت عهدهم وإنى على أمثال تلك لحابس

وأنى للطلول العيش فى نفس الماجنين الذين يحيط بهم الجمال الحضرى ، وتملأ الخمر نفوسهم نشوة وسروراً ؟!

ودع الوصف للطلول إذا ما دارت الكأس يسرة ويمينا

ولا ريب أن الطلول موضوع عتيق يجب أن يفسح الطريق لابنة الكرم !

صفة الطلول بلاغة القدم فاجعل صفاتك لابنة الكرم

بل إنها لقذى فى عين أبى نواس ، وعبء لا يحتمله فكره كما يتبين من شعره .

ولكن لا ريب أن أبا نواس لم يكن مبتكراً لهذا النوع من الانصراف عن الأطلال وإن بالغ فى الحملة عليها ، فلعل امرأ القيس كان أول من وقف بها ، كما مر ، وكما يقرر المأثور من الشعر قبله على اختلاف فيه ، والمهلهل معاصره قد انصرف عنها أوكاد ، ووجدت نغمة الإنكار لها فى دور التقليد ، كما أهملها كثير من قدماء الشعراء وبخاصة شعراء الحماسة . ويظهر أن هذه المعركة العباسية كانت أثراً لعناية الرجاز وذى الرمة بهذا الموضوع عناية مبالغاً فيها .

وقد عبر أبو تمام عن الفتنة بوقفات ذى الرمة فى قوله :

ما ربعُ ميّـة معموراً يطيف بـه غَيْلان أبهى رُبىً من ربعها الخَرِب

ومن هنا قامت جماعة تقف وتطنب على نحو لم يتوفر لشعراء الجاهلية ، وتجمل الوقفات بالأطلال تجميلاً ، كما قام أبو نواس يحارب هذا الاتجاه ، ويسخر من أصحابه ، وينكره بملء فيه ، وبكل ما يستطيع من تهكم .

* * *

وفى هذا العصر ظل الشعراء يركبون المطى إلى الممدوح ، ويتحدثون فى حضارتهم حديثاً

بدويا ، على نحو تحجرت فيه الأوصاف القديمة . وإذا كان أبو نواس قد ثار على الأطلال والوقوف بها ، فإنه قد ركب المطى إلى الممدوح واصطنع الألفاظ البدوية والمعانى القديمة ، كما اصطنعها أبو تمام اصطناعاً يبدو غريباً بين سائر شعره ؛ فيكاد بعضه يكون جاهلى التأليف والأسلوب ، وإن كان سائره طريفاً فى المعنى واللفظ .

والبحترى يركب كذلك إلى الممدوح طلباً للعطاء . أما ابن الرومى فقد قصد إلى المدح ، فى جملة شعره ، على نحو آخر واقعى وهو إيراد الصفات الحميدة الخاصة بالممدوح .

ولعل ابن المعتز كان أكثر الشعراء فى عصره عناية بوصف الفرس والناقة والمهمة فى مدحه وفخره . لكنه مع استخدامه لألفاظ القدماء ومعانيهم ، يصطنع الأسلوب العصرى .

وكيفما كان الأمر ، فهذا اللون الطبيعى القديم قد انتهى فى جملته إلى الجمود والتحجر ، وهو بهذا لا يدخل فى شعر الطبيعة إلا باعتباره تطوراً للون شعرى مشرق .

وقد يبدو عجباً أن يرضى الممدوحون المتحضرون ، ومن بينهم أعاجم ، بهذه الألوان الجافة . لكننا إذا ذكرنا أن شعراء العرب من قبل كانوا يرحلون بمدائحهم إلى ملوك العجم وولاتهم المترفين ، ويقدمون هذه الألوان فى بهائها الماضى ، لم يبق أى موضع للعجب .

٤

ومكانة الرجز فى العصر الأموى بقى لها امتداد فى العصر العباسى ، فخلَفَ عقبةُ بن رؤبة أباه وجدَّه فى هذا اللون ، وظل الشعراء يعالجونه . لكنه تطور فى هذا العصر من ناحية الموضوع والتصوير فيما يتصل بالطبيعة .

كان الشعراء القدماء يعالجون الصيد على الفرس ، ويصفون كلاب الصيد وصفاً فيه تقبيح لها ، إشارة إلى البأس ، وتجميل للصيد ، وأتى الرجاز فى حركة الإحياء فساروا على نمطهم . أما فى هذا العصر فقد أصبح كلب الصيد يصور فى الأراجيز تصويراً حسناً ؛ فهو شجاع خفيف فاتك ، مسعد لأصحابه ، جميل الشكل ، يصطاد فى مهارة وبراعة . وتبدو فى هذه الأوصاف فتنة بهذا الحيوان كما فى أرجوزة أبى نواس :

لما تَبَدَّى الصبح من حِجَابه كطلعة الأَشْمَطِ من جلبابه

وقد تأثر بالقدماء ، وبخاصة امرؤ القيس ، حين استعار منهم بعض صفات الفرس لكلبه ؛

فبكر به فى الصباح ، وتحدث عن جيشان المرح ، والمتنين ، والخروج من الإهاب ، والذيل ، وأسرى الأوابد ، كما مثل نفسه الهائمة بالشراب حين صوره على مثال النشوان .

وهكذا لاءم بين القديم والحياة الحديثة التى يشيع فيها الطرد والقنص ، ويعتز الكلّاب بكلبه ويدلله . وتبدو الفتنة أشد بالكلب فى قوله :

أنعت كلباً أهله فى كدّه ... قد سعدت جدودهم بجده
وكل خير عندهم من عنده ... يظل مولاه له كعبده
يبيت أدنى صاحب من مهده ... وإن غـدا جلله ببرده
ذا غـرّة محجلا بزنده ... تلذ منه العين حسن قده
تأخـير شِدْقَيْه وطول خده

وقد يصف الصيد بالبازى ، ويطنب فى وصفه ، كما يصف الصيد باليُوزِ .

وتبدو طرافة التصوير فى وصف البحترى لحلبة الصيد فى أرجوزة منها :

يا حسن مبدى الخيل فى بكورها ... تلوح كالأنجم فى ديجورها
كأنما أبدع فى تشهيرها ... مُصوّر حسّن فى تصويرها
تحمل غرباناً على ظهورها ... فى السّرق المنقوش من حريرها

وفى هذا التصوير حظ مذكور من جمال الطبع ووضوح الفتنة بالمظاهر الطبيعية . لكن جملة هذه الأوصاف أقرب إلى سرد الأنباء منها إلى وصف الطبيعة بمظاهرها الباهرة ، فلا نحس فيها تلك الجاذبية التى يصوِّر بها الشاعر القديم حيوان الوحش ، ويضفى عليه المعانى الإنسانية ، ويلبسه أجمل لباس فنى . وجل ما فيها هو براعة التصوير البديعى .

٥

هذه هى صورة القديم فى شعر الطبيعة كما انتهى إليه فى هذا العصر . ويقتضى تصويرُ الجديد الحديثَ عنه عند أعلام العصر الخمسة : أبى نواس ، وأبى تمام ، والبحترى ، وابن الرومى ، وابن المعتز . أما بشار فلم يحدث جديداً فى هذا الموضوع ، وإن أثر فيه بعنايته البديعيّة .

ويصح ، قبل الخوض فى شعر الطبيعة عند هؤلاء الأعلام ، أن نبين ذلك الجديد الذى

كان مثار نزاع ، لذلك العصر ، بين أصحابه وأصحاب القديم .

أُطلق « البديع » فى هذا العهد على الألوان والمحسنات البلاغية ، ويُقصد بهذه التسمية إلى أنها شيء جديد مبتدع (١) . ويلاحظ فى الجديد كذلك ملاحة القصد ، وحسن الإشارة ، والتأنق فى الأداء ، وعدم استعمال الغريب ، واتخاذ الألفاظ السهلة التى يفهمها عامة الناس . وقد بالغ بعضهم فى هذه السهولة حتى اعتفر الركاكة (٢) .

غير أن أبا نواس كان يزيد فيدعو إلى أن يصور الشعر الحياة ، وألا يغنى المحدثون بحناجر القدماء . وهذا المذهب إن لم تتم سيادته فى هذا العصر فقد ساد من بعد ، وعبر عنه فى قوله :

صفة الطلول بلاغة الفَدم ... فاجعل صفاتك لابنة الكرم
لا تُخْدَعَنّ عن التى جُعلت ... سقم الصحيح وصحة الجسم
تصف الطلول على السماع بها ... أفذو العِيان كأنت فى الحكم !
وإذا وصفت الشيء متبعاً ... لم تخل من غلط ومن وهم

وفى البيت الأخير يذكر أبو نواس أخطاء المقلدين التى يعنى بها النقد الحديث ، ويتناولها بالبحث والتحليل . ولو أن الشعراء نهجوا طريقه ، أو لو أن أبا نواس نفسه تجاوز ميدان الخمر والمجون ، لتطور شعر الطبيعة تطوراً أعظم .

* * *

هذه كانت سمات الشعر الحديث لذلك العصر . وكان يجانبه شعر المدح الذى يعنى بالفخامة والجزالة ، ويتبع ، إلى مدى بعيد ، الطريقة التقليدية ؛ وشعر الغريب الذى يتمثل فى تلك الأراجيز الشائعة بين الشعراء .

والمذهب الجديد لم يكن الشعراء متساوين فى اصطناعه بطبيعة الحال ؛ فهم جميعاً قد أخذوا من البديع بحظ ، لكن منهم من أسرف فيه ، كأبى تمام ، مع شدة عنايته بالمعانى ، ومنهم من كان يرى السهولة قبل كل شيء كأبى العتاهية ، ومنهم من كان يمقت التكلف والإغراب كالبحترى وابن الرومى ؛ لكن هذه الخصائص تدور فى المحيط العام الذى سبق تحديده . فما نصيب شعر الطبيعة من هذا التجديد ؟

(١) البيان والتبيين : ج ١ ص ٥٤ – ٥٥ ، ج ٣ ص ٢٧٢ ؛ والحيوان ؛ ط ساسى : ج ٣ ص ١٧ ، وكتاب البديع لابن المعتز ؛ ط هرتفورد ١٩٣٥ : ص ٥٨ .

(٢) الأغانى ؛ ط دار الكتب : ج ٩ ص ٧١ – ٧٢ و٩٤ – ٩٥ ، والعمدة لابن رشيق ؛ ط مصر : ج ١ ص ٨١ – ٨٢ .

٦

أبو نواس

أما الطبيعة عند أبي نواس ، صاحب المجون والشراب ، فقد اصطبغت كلها بصبغة الخمر . إذا وقف القدماء على الطلل البالي والرسم الدارس ، وقف هو على منزل الشراب يذكر الندامى ، وآثار الزقاق ، وبقايا الريحان . وإذا كان الصبوح حبيباً إلى نفسه فإنه يحيي الصبح من أجل الخمر ، ويهتف بها :

قد هَتَك الصبحُ سُتُور الدُّجى فـانْحسرت أثوابُـه الجُون
فـاصبح نَـدَامـاك سُخـاميّة أتَى لها فى دَنِّها حِين

كما يستعذب غناء أطياره الفصح ، ويغرى بالشراب من أجلها :

يا إخوتى ذا الصباح فاصطبحوا فقد تغنّت أطياره الفُصْحُ

ويعجب بموقف ديك الصباح :

ذكر الصبوح بسحرة فارتاحا وأمله ديك الصباح صياحاً
أو فى على شرف الجدار بسدفة غرداً يصفق بالجناح جناحاً

وكيف لا يعجب بالديك ، وتغريده والشراب يتلازمان فى ذهنه :

غرّد الـــديك الصبوح فـــاسقنى طاب الصبوح

وكان طبيعيا ، لذلك ، أن يعنى بهذا الديك ، ويقول فيه القصيد والرجز مشيداً بشجاعته ، مجملاً لصورته مضفياً عليه أجمل الصفات التى أضفاها القدماء على الناقة والفرس . ومثل هذا ما جاء فى أرجوزته :

أنعت ديكا من ديوك الهند أحسن من طاووس قصر المهدى
أشجع مَنْ عادى عرين الأسد ترى الدجاج حوله كالجند

فديك أبى نواس فيها جميل لا يضارعه فى الجمال جميل . وهو يجمع إلى الحسن الشجاعة ؛ فيقف بين الدجاج وقوف القائد بين الجند ، تخافه وتفزع من صوته المدوى كالرعد . وبعد أن يصف أعضاءه يذكر بأسه . ولا ريب أن هذا خيال سكران يُضخِّم الصغائر ، ويُجمِّل جوه حتى ليبدو أروع جوّ وأقواه وأبهاه ، وحتى ليخال نفسه فى قصر الملك ومن حوله القائد والجند ، وإن كان فى بيت متواضع يمرح فيه الديك والدجاج .

ولجمال نفس أبى نواس ومرحه تبدو الطبيعة من حوله جميلة ، طيبة الهواء ، مورقة الشجر ، ويبدو الربيع حسناً ، تحار الأبصار فى حسنه وتؤخذ ببارع وشيه :

طاب الزمان وأورق الأشجار ومضى الشتاء وقد أتى آذار
وكسا الربيع الأرض من أنواره وشيا تحار لحسنه الأبصار

وأى جمال أعظم من جمال الربيع ؛ يتحلى بالأصفر والأحمر والأخضر والأبيض ، ثم لا يضن على الرياض بحليه فيقصدها مبكراً ، ويكسب جو الشراب أبهى الجمال ؟ ! إنه يستولى بحسه على البصر بل على السمع كذلك [١] .

ومن أجل الخمر وصف أبو نواس الكرم فى نحو قوله :

لنا هجمة لا يدرك الذئبُ سَخْلَها ولا راعها نزو الفِحالة والْخَطْر
إذا امتحنت ألوانها مال صفوها إلى الجوِّ إلا أن أوبارها خضر
فإن قام فيها الحالبون انتقتهم بنجلاءَ ثقبِ الجوفِ درتها الخمر
مسارحها الغَزّى من نهر صرصر فقُطْرُبُّلٌ فالصالحية فالغَفْر
تراث أنوشِروانَ كسرى ولم تكن مواريث ما أبقت تميم ولا بكر

وهو فى هذا الوصف قد تأثر بالبدويين فى تمثيلهم حدائق الكرم بمسارح البعران ، وعناقيد العنب بأشباح الفصْلان [٢] ، لكنه لم يلبث أن اصطنع الجديد فى البيت الثانى ليعود إلى القديم فى الثالث ، وليتبع طريقة القدماء فى تحديد المواضع فى الرابع ، ثم لينتهى إلى السخرية بالعرب فى البيت الأخير . وهكذا يدور هذا الوصف القصير حول المحور الذى يدور عليه شعر ذلك العصر ، وتظهر فيه روح الذبذبة الذى تسوده .

ومن أجل الخمر أيضاً وصف أبو نواس النخيل وصفاً رائعاً تحف به الطبيعة بحيوانها وجوهرها وكواكبها ، ويربط بين سماء الطبيعة وموجودات أرضها من النبات والحيوان والجماد ربطاً بديعاً محكما :

لنا خمر وليس بخمر نحل ولكن من نتاج الباسقات
كرائم فى السماء ذهبن طولا ففات ثمارُها أيدى الجناة
قلائص فى الرؤوس لها ضروع تدر على أكف الحالبات

---

(١) راجع الأبيات التى أولها وروضة بكر الربيع بها جار حوزانها خزاماها

(٢) فصول التماثيل لابن المعتز ؛ ط مصر سنة ١٩٢٥ : ص ٧ .

صحائح لا تعر ولا تراها عجافاً فى السنين الماحلات
مسارحها المذار فبطن جوخى إلى شاطى الأبلة فالفرات
فحين بدا لك السرطان يتلو كواكب كالنعاج الراتعات
بدا بين الذوائب فى ذراها نبات كالأكف الطالعات
فشققت الأكف فخلت فيها لآلئ فى السلوك منظمات
وما زال الزمان بحافتيها وتقليب الرياح اللافحات
فعاد زمرداً واخضر حتى تخال به الكباش الناطحات
فلما لاح للسارى سهيل قبيل الصبح من وقت الغداة
بدا الياقوت وانتسبت إليه بحمر أو بصفر فاقعات

وإذا كان قد انتقص من قدر النخيل وخمره أو كاد فى مطلع هذه الأبيات ، فرجع ذلك إلى جو الشراب الذى يحبب كل حال إلى صاحبه . وبهذا لم ير فى مقام آخر من بأس أن يشيد بذكر العسل وخمره ويضفى عليه ألوان الجمال ، وأن ينصرف كذلك عن النخل وخمرها :

ليست إلى النخل والأعناب نسبتها لكن إلى العسل الماذى والماء
نتاج نحل خلايا غير مقفرة خصت بأطيب مصطاف ومشتاء
ترعى أزاهير غيطان وأودية وتشرب الصفو من غدر وأجساء
فطس الأنوف مقاريف مشمرة خوص العيون بريئات من الداء

وهكذا تملك الطبيعة بمظاهرها على أبى نواس لبه ، ما اتصلت بالخمر وما اتصلت الخمر بها ، وكان شعره سبباً فى عناية الشعراء من بعده بوصف الطبيعة والخمر .

٧
أبو تمام

أما أبو تمام فالطبيعة تستهويه كل الاستهواء ، وتستولى على فؤاده بأزهارها ورياضها وغيثها وبرقها ، ولا يكفيه الإعجاب بألوانها الزاهية ، وإنما يتأمل ويفكر ، ويخرج من تأمله وتفكره بالنظريات والأحكام الشعرية . وقد خرج على التقليد العربى حين وصف الزهر والروض والربيع والغيث فى طريقه إلى الممدوح . ولعل ابن قتيبة كان يعنيه حين أنكر هذا النهج الشعرى مع

نزعته التجديدية . وإذ كان الربيع بهجة العام ومهرجان الطبيعة ، فقد كانت فتنته لأبى تمام بليغة ، ومما يمثل هذه الفتنة قوله :

رقّت حواشى الدهر فهى تُمَرْمِرُ ... وغدا الثَّرى فى حَلْيه يتكسر
بذلت مقدمة المصيف حميده ... ويدُ الشتاء جديدة لا تُكفر
لولا الذى غرس الشتاءُ بكفه ... قاسى المصيف هشائماً لا تُثمر
كم ليلة آسى البلاد بنفسه ... فيها ويوم وبله مُتْعنْجِر
مطر يذوبُ الصحوُ منه وبعده ... صحوٌ يكاد من النضارة يَقْطُر
غيثان : فالأنواء غيث ظاهر ... لك وجهه ، والصحو غيث مُضْمَر
وندًى إذا ادّهنت به لِمَمُ الثرى ... خلتَ السحاب أتاه وهو مُعذَّر
أربيعنا فى تسع عشرة حجة ... حقاً لهنك للربيع الأزهر
ما كانت الأيامُ تسلبُ بهجة ... لو أن حسنَ الروض كان يُعَمَّر
أو لا ترى الأشياء إن هى غيرت ... سمُجت وحسنُ الأرض حين تغير
يا صاحبىّ تَقَصَّيَا نَظَرَيْكُما ... تريا وجوهَ الأرض كيف تصور
تريا نهاراً مُشمساً قد شابه ... زهرُ الربا فكأنما هو مقمر
دنيا معاش للورى حتى إذا ... حَل الربيع فإنما هى منظر
أضْحَت تصُوغ بطونُها لظهورِها ... نَوْراً تكاد له القلوب تنور
من كل زاهرة تَرَقْرَقُ بالندى ... فكأنها عين إليك تَحَدَّرُ
تبدو ويحجُبُها الجميمُ كأنها ... عُذُرٌ تَبَدَّو تارة وتَخَفَّر
حتى غدت وهداؤها ونجادها ... فتنين فى حُلَل الربيع تَبَخْتر
مُصْفرة محْمرة فكـــأنها ... عُصُبٌ تيمن فى الوغى وتَمَضَّر
من فاقع غَضَّ النبات كأنه ... دُرَرٌ تُشقَّقُ قبل ثُم تُزَعْفَر
أو ساطع فى حمرة فكأنما ... يدنو إليه من الهواء مُعَصْفَر
صُنْعُ الذى لولا بدائع لطفه ... ما عاد أصفر بعد إذهو أخضر
خلق أطل من الربيع كأنه ... خلق الإمام وهديه المتنشر

وأى فتنة أعظم من هذه ! إن حواشى الدهر تتمايل رقة ، وإن الثرى يتثنى فى زينته التى أضفاها الربيع عليه . والجار يكرم من أجل الجار ؛ ولهذا لم يجز عند عابد الربيع أن يغفل

الشتاء ، فقد جاد الأرض ليلاً ونهاراً ، وكان مقدمة لازمة للربيع . ثم ما هذا الجمال الباهر الذى تتغير فيه طبائع الأشياء ؛ حتى يصير الصحو غيثاً والغيث صحواً ، وتبدو السماحة حسناً والقبح زيناً ؟ ! وما هذه الفتنة المحيرة التى تتفاعل فيها معانى الجمال ؛ فيختلط جمال الشمس بجمال القمر ، وتمتزج الحمرة بالصفرة والصفرة بالحمرة ؟ ! وما هذا الدلال الذى تتبدى فيه الأرض بصورها وألوانها؟ !وما هذا النور الذى تتفتح له القلوب ؟! وما هذا التغير الدائب فى الطبيعة ؛ ذلك التغير الذى يزيدها حسناً ، ويضفى عليها مزيداً من جمال ؟ ! إنه وقت الحسن لا وقت العمل ؛ فعلى العيون أن تمتلئ منه ، وعلى النفوس أن تتوفر على المتاع به ، وتنصرف فى وقته عن كل ما سواه من شئون المعاش ، فكفى تلك الشئون بقية العالم . وإنه صنع الله البديع المعجز الذى لا يدانيه صنع ، وحكمة الطبيعة التى تؤذن بأن دوام الحال من المحال ، وأن البهجة زائلة .

وأبو تمام قد استخدم فى فنه المحسنات اللفظية والمعنوية استخداماً ؛ فأكثر من الاستعارات وألوان الجناس والطباق ومراعاة النظير ، وظهر تعلقه بالألوان ، وبدا إرهاف حاسته البصرية . لكن انفعال الشاعر جلى المحسنات رقيقةً شفافة ؛ لا تحول دون جمال المعانى ، بل تعكس فيها الضياء فتزيدها بريقاً ولمعاناً . وكان له أكبر العون فى قدرته العجيبة على بعث الحياة القوية فى الصورة ، وإبرازها على نحو أخاذ تبدو فيه ذات صور للجمال متنوعة ، ولا يحول وضوح الظهور دون ظهور البطون .

وكيف لا يعجب بالربيع ، وينشد فيه الشعر متغنياً ، والربيع نفسه شاعر مثله ؛ يتغنى بالروض مادحاً الغيث كأنما أهدى إليه من الثياب المنمقة ألواناً :

ومُعَرَّس للغيث تخفق فوقه رايات كل دُجُنَّة وطفاء
نشرت حدائقه فصرن مآلفاً لطرائف الأنواء والأنداء
فسقاه مسك الطل كافور الندى وانْحلّ فيه خيط كل سماء
غنّى الربيع بروضه فكأنما أهدى إليه الوشى من صنعاء

وليس تمثيله السابق للربيع وغنائه بأقل روعة من هذا التمثيل للغيث يمهد للربيع ، وينشر ألوية السحب السوداء ، ويبسط حدائقه المزهرة ، ويرسل شذاه الذكى .

وأى شاعر لا يحب الربيع ، وهو أثر الزمان وشباب الدنيا الفاتن البسام ؛ كل ما فيه مطرب ، وكل جوه بهاء وحسن ، ثم هو عظة الله وآيته فى خلقه ! أليس الشاعر الحساس

منصفاً ومحقا إذا استولت الفتنة على نفسه ، وملكت الدهشة قلبه ، وانطلق لسانه يسبح بحمد الربيع فيقول :

إن الربيـــع أثر الزمان لو كان ذا روح وذا جثمان
مصوراً فى صورة الإنسان لكان بسّاماً من الفتيان
بوركت من وقت ومن أوان ! فالأرض نشوى من ثرى نشوان
تختال فى مفوّف الألوان فى زهر كالحدَق الروانى
من فاقع وناصع وقان عجبت من ذى فكرة يقظان
رأى جفون زهر الألوان فشك أن كل شيء فان !

أليس من واجب الوفاء للمنعم أن يحيى الشاعر الربيع الذى يهدى إلينا البشاشة والنور ، ويجعل عالمنا الأرضى مراحاً للسرور ؛ يضحك نبته ، ويتيه عوده بنضارة ورقه :

نعمنا بالبشاشة والسرور وأيـــام الربيـــع المستنير
وقد ضحك النبات بكل أرض وتاه العود بالورق النضير

وهذه الصور الربيعية أجمل ما عند أبى تمام من شعر الطبيعة . وقد وصف كذلك البرق والغيث ، وما يكسو الأرض من ألوان الزهر وما يشيع فيها من العطر ؛ لكنه فى هذه الأوصاف وثيق الصلة بالماضى ، يبعث القديم فى أسلوب بديع وعرض شائق ، ويفيد من معانى السابقين إفادة أوضح من إفادته فى أوصاف الربيع .

وأبو تمام يحيى فى الغيث بهجته وزهره وكرمه وإغاثة الأرض وإحياء الموات . فالديمة سمحة يستغيث بها الثرى فتجيبه ، ولو استطاعت البقاع الحركة لسعى المكان الجديب نحوها ، بعد أن جادته ، يشكر الفضل . يكشف لها الروض رأسه ، ويختفى منها المحل كما يختفى المتهم من عار الجريمة .

ديمة سمحةُ القياد سَكُوب مستغيثٌ بها الثرى المكروب
لو سعت بقعة لإعظام نعمى لسعى نحوها المكان الجديب
لذّ شؤبوبها وطاب فلو تســ ـطيع قامت فعانقتها القلوب
فهى ماء يجرى وماء يليه وعزالى تنشّا وأخرى تذوب
كشف الروضُ رأسَه واستسر الـــــمحل منها كما استسر المريب
أيها الغيث ! حى أهلا بمغدا ك وعند السرى وحين تثوب

وقديمة مواد هذه الأوصاف الأولية ؛ من سماح الديمة وتتابع مياهها ، وإحياء الروض ، وذكر الأماكن ، وتحية الغيث للأهل . عالجها امرؤ القيس ، وعالجها من بعده من الشعراء ، لكن أحداً لم يظفر بهذا النحو من العرض الذى تبدو فيه الصلة وثيقة بين الأرض والسماء ، وتنوادّ مظاهر الطبيعة المختلفة .

وقد يصور أبو تمام الروض يغتبق من الغيث ويصطبح ، ويشتد فرح نواره حتى تدمع عيونه إذا ضحكت السحب الدهم ، وافترت ثغورها عن البرق .

وقد يمثل البرق محيلاً الليل المظلم ببرقه نهاراً ، ومادًّا الأرض بوبله ونداه ، ومستحيلاً ناراً بعد أن كان ماء ، يرضى الأرض بإحيائها ، ويسخط الغبار فيثيره .

وقد يصور المطرَ حقَّ الأرض على السماء ، يقتل المجل ، وتهتز الأرض ارتياحاً لوقعه ، كما تهتز البكر للبعل ، ولا تلبث أن تنطوى على حمل عقب انتشار أعلامه فوقها [1] .

وقد يصور عالم الطبيعة ذا حياة اجتماعية معقدة ، فيها سيد ومسود ، وشفيع ووساطة ، وعطاء جميل خلاب ، ويصور الرياض ذات مضاحك فى النهار ومضاجع فى الليل ، وثياب جميلة مزركشة :

ريّى شفعت ريح الصبا لرياضها ... إلى الغيث حتى جادها وهو هامع
فبشر الضحى غدواً لهن مضاحك ... وجنب الندى ليلا لهن مضاجع

وقد يتسع مدى هذا التصوير كما فى أرجوزته :

لم أر غير جمة الذؤوب ... تواصل الإدلاج بالتأويب

فيمثل السحب إبلا نجيبة طيعة ، تسوقها ريح الجنوب ، موكلةً بمحو مصائب الأيام ، محو استلام الحجر الأسود للذنوب . تفرح الأرض بالغيث فرح الأديب بالأديب ، وتطرب له طرب المحب للحبيب ، وهو لها شفاء ومتاع معنوى . ويُكمِّل المعنى بتمثيل الرعد خطيباً ، والريح ذات حنين ، والأرض ذات شباب حين تكسوها الزهور ، وشيب حين يعلوها الجليد . ثم يذكر الحالات المختلفة أو الأيادى المتنوعة ، شأن المؤرخ يعدد مناقب العظيم .

ومن شعر الطبيعة الذى تتمثل فيه الصلة بين القديم والجديد عند أبى تمام ، مع روعة الجديد وبهائه ، قصيدته التى وصف بها الصيف والشتاء ، وتحدث عن برد خراسان :

---

(١) الديوان : ص ٤١٦ – ٤٢٠ .

لم يبق للصيف لا رسم ولا طلل ولا قشيب فيُستَكْسَى ولا سمل[1]

فأبو تمام يفتن فيها بالربيع لحياته الشعرية ووجوده الجميل ، لكنه لا ينسى الصيف وإن كان بخيلاً ، فيبكيه كما يبكى الشباب والحب . فحب الطبيعة يجب أن يكون قسمة بين مظاهرها المختلفة ، وأن يكون الدمع فى بكائها مقسماً بالعدل . ولهذا يمثل الطبيعة فى حال من الغضب بعد الصيف ، والجبل قد لبس عدة الحرب وتهيأ للنزال ، ولا يثنيه برد الشتاء عن وصفه بالكرم ، ولا بخل الصيف عن تحيته . وهكذا تبدو مظاهر الطبيعة العنيفة عنده فى لباس الروعة والمهابة ، كما تبدو مظاهر الطبيعة الرقيقة مشرقة باسمة ؛ وهو فى الحالين يرعى للطبيعة حقها ، ويمثل فتنته بها أكمل تمثيل .

وكان طبيعياً ألا يفهم بعض معاصريه هذا المنحى منه ، وأن ينكره عليه بعض من الأعراب واللغويين لم يكن يفهم سوى القديم واحتذائه . أما الخروج عليه ، وإن بقدر ، فمنكر ؛ وإن كان فيه إبداع ، وإن كان فيه جمال ! .

والحق أن حياة الطبيعة قد عظمت فى نفس أبى تمام ، واشتد إحساسه بحركاتها وألوانها ، وتأمُّله فيها ، وتهيأت له نفس شاعرة تؤدى ما تمثله أحسن أداء ؛ فصور الطبيعة ذات نشاط وحياة ومباهج فاتنة . وكان له ابتكار فى هذا الباب ، وإن كان وثيق الصلة بالماضى يعتمد عليه ويتطور به . والعبقرى فى أغلب الأمر لا يخلق من العدم ، وإنما يمثل الموجود ويتقدم به ، ويكفيه فضلاً أن يسير خطوة أو خطوات نحو الكمال .

٨

ابن الرومى

هل تطور ابن الرومى بشعر الطبيعة كما تطور به أبو تمام ؟ وهل سار خطوة جديدة فى سبيل الكمال ؟

الحق أن ابن الرومى قد ردد فى الطبيعة نغمات أبى تمام ، كما ردد نغمات غيره ، وصاغ كل هذه النغمات فى أسلوبه وبطريقته ، وكانت خطوته الجديدة أضيق من خطوة سابقه . فإذا قدس أبو تمام الربيع ، وعده شباب الدنيا البسام ، وقال إن الروض يضحك للغيث ، وإن

(١) الديوان : ص ٤٢٢ .

الربيع يغنى – ضرب ابن الرومى على ذلك الوتر ، وذكر الشقائق تحكى آلاء ذى الجبروت ، وتزيد النهار سناً ، وتبعث الضوء فى محلولك الظلام ، وما إلى ذلك [١] .

وفى هذا الوصف لا يظهر الانفعال والحب ظهور المحسنات البديعية والتلاعب بالألفاظ ، على العكس من أبى تمام الذى تتضاءل عنده الأولى أمام الثانية بل تزيد فى جمالها . ويهبط حين يصطنع المادية فى عالم الشعر والشعور فيذكر أن الوحش تجد به كفايتها ، وأن الطير يتوفر لها الطعام ، وأن الظباء تتناطح والحمام يتخاصم ؛ ويتأثر بمذهبه الهجائى فى حديث الصيف . فهذه أمور تنزل بالوصف ولا ترتفع به فى هذا الباب .

وقد عنى بالألوان ، لكنه أخذ هذه العناية من أبى تمام ، أو ممن أخذ منه أبو تمام من السابقين ، ثم زاد عرضها فى ثوب بديعى متألق يأخذ البصر بلونه قبل أن يأخذه بجمال تكوينه وحسن نسجه . ولهذا كله يطالع القارىء عند ابن الرومى مهارة فنية ، واستعارة ومحسنات بديعية ، قبل أن يطالع حباً وشعوراً . ونحو هذا من التغنى بصوت أبى تمام قوله :

هب الروض لا يثنى على الغيث نشره أمنظره يحظى مآثره الحسنى ؟ !

ويظهر التأثر البديعى فى وصفه للروض بأرجوزته :

روضة عذراء عانسة جادت لها كل سماء راجسة

وقد نجد فى هذا الوصف طرافة لكنها جزئية مثل التى فى قوله :

تروقك النورة منها الناكسة بعيْنٍ يَقْظى وبجيد ناعسه

ونجد مثل ذلك عنده حين يتبع طريق أبى نواس فى التغنى بالفجر ، ونشر الرياض ، وطرب الطيور ، ومنه قوله :

وأنفاس كأنفاس الخزامى قبيل الصبح بلّلها السماء
تنشر نشرها سحراً فجاءت به سحرية المسرى رخاء

وقوله :

حيتك عنا شمال طاف رَيِّقُها بجنة فحوت روحاً وريحاناً
هبّت سُحيراً فناجى الغصنُ صاحبَه سرًّا بها وتداعى الطير إعلاناً
ورق تغنى على غصن تهدله يسمو بها وتمس الأرض أحياناً
تخال طائرها نشوان من طرب والغصن من هزه عطفيه سكرانا

(١) راجع قصيدته : ضحك الربيع إلى بكا الديم وغدا يسوى النبت بالقمم

فى هذه الأبيات تبدو طرافة فى التصوير ، ويحفها حب ، وتجملها تلك الحياة التى تُبعث فى الأغصان فتتناجى ، وتلك الجاذبية التى تشيع بين الطيور فتتغنى .

لكن هذه الطرافة الجزئية لا تكسب الشاعر معنى الهيام بالطبيعة . وقد تكون من آيات الإتقان الفنى تأتى فى فترات متباعدة ولا يتألف منها كل . والباحث إنما يتناول جملة الشعر وعمومه بالحكم ما دام يقصد إلى البحث المنزه .

وإذا توفر له إحسان إذا حاكى أبا تمام أو أبا نواس ، فالأمر كذلك حين يضرب على الأوتار القديمة التى ضرب معاصروه عليها . ومن هذا قوله فى وصف السحاب :

متهلل زَجِلٌ ، تحن رواعد ... فى حجزتيه ، وتستطير بروق
سدَّت أوائله سبيـــلَ أواخر ... لم يدْر سائقهن كيف يسوق
فسجا وأسعد حالبيه بدرة ... منه سواعد ثَرَّةٌ وعروق
وتنفست فيه الصبا فتبجست ... منه الكُلى فأديمه معفوق
حتى إذا قضيت لقيعان الملا ... عنه حقوق بعدهن حقوق
طفقت رواياه تجر مزادَها ... فوق الرُّبى ومزاده مشقوق
وتضاحك الروض الكئيب لصوبه ... حتى تفتق نوره المرتوق
وتنسّمت نفحـاتـه فكـأنـه ... مسك تضوع فأره مفتوق
وتغَرّد المُكّاء فيه كأنه ... طرب تعلل بالغناء مشوق

فهذا اللون من تصوير السحاب شديد الشبه بتصوير القدماء من لدن امرئ القيس ؛ تبدو فيه معانيهم من حنين الرواعد ، والتهلل ، والزجل ، والسوق ، وتتابع الماء بين قليل وكثير ، وتغريد المكاء كالنشوان . وشابته كذلك روح أبى تمام فى تنفس الصبا ، وتضاحك الروض ، وحقوق الأرض على الغيث .

لكن ابن الرومى الفنان قد استطاع أن يؤلف وصفاً لا يبدو فيه شىء من التلفيق ، وإنما تظهر وحدة النظام ووحدة الأسلوب ، وإن لم يستطع الإثارة القوية لانفعال القارئ . أما الباحث فيحس بأنه يطالع وصفاً بدوياً لا عباسياً ، لولا تلك الشوائب القليلة من المعانى والمحسنات البديعية . ويظهر القديم كذلك فى وصف ابن الرومى للهاجرة الصحراوية بآلها وسرابها والفيافى .

وهكذا يبدو من جملة شعر ابن الرومى أنه مقلد فى الطبيعة ؛ لا يصدر عن ذات نفسه

ولا يهيم بها ، وإنما يصطنع أساليب الآخرين ويحذو حذوهم . وإن كان له إبداع ، فليس فى باب الطبيعة وإنما فى باب الهجاء . وربما كان هذا الإبداع من الطريق الذى يتناول فيه الشاعر معانى القدماء ، فيستوعبها ، ويزيد فيها ، ويبالغ فى الزيادة ، حتى يبهر بفيض شعره ، مع ما خص به الشاعر من الإفحاش فى السب والإقذاع فى الأداء .

ويزداد أمر ابن الرومى وضوحاً إذا ذكرنا أنه لا يذكر الطبيعة ، فى كثير من الأحيان ، ذكر المفتون بها الذى تتحد عنده مظاهرها المختلفة ، وتتوثق الرابطة بينها ، وتصوّر فى نفسه بمجموعها كُلاًّ للعالم الطبيعى الباهر الجمال .

وهو فى تقليده يعجب بالألوان القديمة فيرددها فى فتنة . تحدث عن الهاجرة فلم نحس ببغض لحرها اللافح ، بل بفن وجمال فى التصوير . وصور الضرب فى الفيافى ليلاً ، فلم نشعر بالضيق والتعب ، وإنما شعرنا بالشجاعة والإقدام والفتنة فى التصوير ، مثلما شعرنا فى تصوير القدماء لتلك الرحلات الطبيعية .

وحين يصدر عن نفسه يتأثر بنداء المعدة . يحب العنب الرازقى فيصوره تصويراً جميلا ، وإن لم يكن قوى الانفعال والشعور ، ويرحل إليه مبكراً كما صنع أبو نواس من قبل ، وكما كان القدماء يرحلون للصيد . وإذا حيى ليل أيلول ذكر الفاكهة التى يحبها ويحلو له مذاقها . وإذا تحدث عن جو الشراب ذكر الطعام والنساء مع الريحان . وقد يلم بذكر الربيع فى هذا الجو دون أن يتغلغل فى حديثه .

ونحو هذا دلالةً تلك المعاركُ التى يقيمها بين موجودات الطبيعة الجميلة . فهو يفضل النرجس على الورد ، ويقسو فى هجاء الثانى ، ويبالغ فى مدح الأول ، ويذم المشمش والشجر غير المثمر ، ويبغض الغيث إذا أرسل مدرارا . والشاعر الطبيعى الحق تبدو عنده الطبيعة وحدة متماسكة ، لها قانون ثابت ، ونظام تام ، ووجود وثيق لا شذوذ فيه ولا نبو ، وجمال موزع بين مظاهرها جميعاً . وابن الرومى إما أن يكون متلاعباً فى تلك الأوصاف وإذاً فليس من شعراء الطبيعة ، وإما أن يكون صادقاً فى أوصافه ينتخب من الطبيعة ويختار ، وإذاً فهو من هؤلاء الشعراء فى مكان غير رفيع .

ولعل ابن الرومى كان ذا يد فى سيرورة هذا اللون من المفاضلة بين الزهور فى الشعر العربى ، وهى يد غير مشكورة فى باب الطبيعة .

وابن الرومى ، تمشياً مع مزاجه المنقبض ، واستجابة للميراث العربى ، يخاف الموج ويكره

ريح الجنوب ، مع أنه كثيراً ماركب السفن وقطع الرحلات الطويلة . ولهذا لم يصف البحر وصفاً ممتعاً . وكيف يفعل وهو مشغول بالرزق وطلبه ، متوفر على الهجاء حتى يخشاه الناس فيعطوه طلباً لمدحه واتقاء لهجائه ؟ ! ومن أقواله فى البحر التى تدل على الكراهة الشديدة ، بله عدم الفتنة :

وحسبى رائعاً أهوال بحر يظل العقل منها فى غروب

ومن قوله فيه وفى الريح :

وقانى شره من بعد بأس دِفَاع الله دفّاع الريوب
فمن يطرب إذا هبت جنوب فلست لها وعيشك بالطروب !
ولكنى لها مذ كنت قالٍ قَلَى المملوك للوانى الضروب
ولو حيّت بريّى الروض أنى ولو جاءت بكل حياً سَكُوب

وهو لا يبغض ركوب البحر فقط ، وإنما يبغض الأسفار جميعاً بغضاً كرّه إليه الغنى :

أذاقتنى الأسفار ما كره الغنى إلىّ ، وأغرانى برفض المطالب

وإذاً فالشاعر لا يسافر ، ولا يحس فى السفر هياماً بالطبيعة ، وإنما يطلب الرزق ، ولولاه ما سافر ؛ بل إنه ليمقت الأسفار مقتاً انتهى به إلى بغض كل خير من طريقها . وقد فقد بهذا أهم عنصر من عناصر التفوق فى شعر الطبيعة ، وهو الحب للأسفار والاندماج فى الطبيعة بمعاهدها المختلفة .

والذين يذكرون ابن الرومى فى شعر الطبيعة العربى يعتمدون على ما تفرق فى شعره من أبيات ، فى غير نظر إلى القصيدة كلها ، وبلا ربط بين الموضوعات الشعرية جميعاً ، ودون تقدير لعامل التطور الشعرى والتقليدى الأدبى .

٩

البحترى

وإذا كان ابن الرومى لم يُضف كثيراً إلى بناء شعر الطبيعة العربى ، فقد كان حظ البحترى فى هذا الباب أعظم . وذلك طبيعى فى شاعر سَلِيقى يُنكر التكلف والانحراف بالطبع عن

مجراه ، أو تقييده بحدود من القواعد والقوانين ، متبعاً طريق امرئ القيس إمام شعر الطبيعة [١] .

والحق أن البحترى قد تناول شعر الطبيعة لعصره وما قبله ، فجلاه فى ثوب فاتن ، وأضفى عليه من روح الشاعر فيضاً لا تحجبه الصنعة التى ساهم فى الأخذ بها ، ولا تغشيه الزينات البديعة .

وهو حين يسير على نهج أبى نواس وأبى تمام يصف الخمر فى جو الطبيعة البهيج الفاتن. وقد يبلغ تأثره بأبى تمام مبلغاً كبيراً ، كما فى قصيدته الهمزية التى يستعير فيها بيتاً له . ومنها قوله :

أَخَذَتْ قصور الصّالحية زينة عَجَباً من الصفراء والحمراء
نسج الربيع لرَبعها ديباجة من جوهر الأنوار بالأنواء
بكت السماء بها رذاذ دموعها فغدت تبسّم عن نجوم سماء
فى حلة خضراء نمنم وشيَها حوكُ الربيع وحليةٍ صفراء

ثم يشاكل بين جمال الطبيعة وجمال الخلق وجمال الخمر ، فيقول :

فاشرب على زهر الرياض يشوبه زهر الخدود وزهرة الصهباء

وهذه المعانى ، وإن تكن غير طريفة فى أصولها ، فأداء الشاعر لها ، فى سهولة لا تبرأ من العمل الفنى ، قد أكسبها معنى الشخصية والصدق ، وجعل الشاعر مندمجاً فى الطبيعة ، تخلب لبه ، وتصبغ كل ما يتراءى له وما يصادفه من متاع بصبغتها :

أما أوصافه للسحب والغيث والرياض ، فإنها تبلغ على يديه درجة عالية من الإتقان ، يصف السحاب فيضفى عليها ألوان الثناء ، ويذكر لها مختلِف الأيادى ، فيقول :

ذات ارتجاز بحنين الرعد مجرورة الذيل صدوق الرعد
مسفوحة الدمع لغير وجد لها نسيم كنسيم الورد
ورنة مثل زئير الأسد ولمع برق كسيوف الهند
جاءت بها ريح الصبا من نجد فانتثرت مثل انتثار العقد
فراحت الأرض بعيش رغد من وشى أنوار الرُّبى فى برد
كأنما غدرانها فى الوهد يلعبن من حبَابها بالنَّرد

وليس بعيب فى الشاعر أن يمتثل الثقافات الشعرية قديمها وحديثها ، ويخضعها لشخصيته ،

---

(١) راجع الأبيات التى أولها : كلفتمونا حـــدود منطقكم والشعر يكفى عن صدقه كذبه

ويجليها بأسلوبه وعلى طريقته . وطريقة البحترى قوامها المبالغة فى تحريك الأوصاف ، وبعث الحياة القوية فيها ، وكمال التشخيص ؛ وقد بدت هذه القطعة على أتمها ، وبخاصة فى البيت الأخير .

وهذه الحركة ، وهذه الحياة تبلغان أشدهما ، كما يبلغ التشخيص أتمه ، فى قوله :

من ذا رأى مُزنا تأزّر برقه ... فى عارض عريان لم يتأزر
غيث أذاب البرق شحمة مزنه ... والريح تنظم منه حب الجوهر
وكأنما طارت به ريح الصبا ... من بعد ما انغمست به فى العنبر
ويضئ ؛ تحسب أن ماء غمامه ... عقد تناثر فى إناء أخضر

والصنعة تبلغ أتمها ، لكن الجمال الذى يؤخذ القارئ بمصادره المتنوعة يغلب على هذه الصنعة . ولقد حدد الشاعر الشكل العام حين جعل البرق مؤزراً والعارض عرياناً ، ثم حددالطبع وهو الذوبان ، وأعمل البرق ، وأعمل الريح ، وقابل بين العملين ، فواحد يذيب أو يحل وآخر ينظم أو يؤلف ، وأعمل الريح كذلك ، وجعل فى عملها تفسيراً للرائحة العبقة ، ثم صور اللون بعد ذلك كله ذلك التصوير الواضح الجذاب .

على أن هذا اللون من التحليل لا يظهر محاسن الصورة كما هى . فصورة البحترى جذابة بجملتها قبل أن تكون جذابة بتفاصيلها ، ومتى حق للصورة أن تقسم أجزاء ، وأن يوضع الإطار فى ناحية والزجاج فى ناحية أخرى ، ثم يكون لها من الجمال فى التفصيل ماكان لها من الجمال فى الجملة ؟ ! .

وحسن الطبيعة يستولى على حس البحترى ، ومن أجله يختار المقام ؛ فالشام أفضل من العراق لأن طبيعة الأولى أجمل . والجمال عنده يأخذ بحظ من الرقة [1] ، وإذا رحل إلى العراق فظهرت محاسن طبيعتها أمامه ، فتن بها وعبر عنها تعبيراً عاطفياً رقيقاً ، يبدو فيه التعلق البصرى والسمعى والشمى [2] .

وكان لزاماً على شاعر هذه روحه وتلك أحاسيسه ، أن يجلى الربيع عروساً تختال ضاحكة ، يتفتح لمقدمها الورد ، وتلبس الأشجار أنضر اللباس ، وترق النسمات ويختفى كل ما فى الدنيا

---

(١) راجع الأبيات التى أولها : إن دمشقاً أصبحت جنة ... مخضرة الروض غداة العراق
(٢) راجع الأبيات التى أولها : تلفت من عليا دمشق ودوننا ... للبنان هضب كالغمام المعلق

من قذى وعبوس . وكان لزاماً عليه كذلك أن يهيب بالراح والأوتار فهذا عرس الطبيعة ، وينبغى لحبيبها أن يحتفل به ، ويكرم مقدمه :

أتاك الربيع الطلق يختال ضاحكا ... من الحسن حتى كاد أن يتكلما
وقد نبه النيروزُ فى غسق الدجى ... أوائلَ ورد كنّ بالأمس نوماً
يفتّقها برد الندى فكأنه ... يبثُّ حديثاً كان قبل مكتماً
فمن شجر رد الربيع لباسه ... عليه كما نشّرتَ وشياً منمنماً
أحل فأبدى للعيون بشاشة ... وكان قذى للعين إذ كان مُحرماً
ورق نسيم الريح حتى حسبته ... يجىء بأنفاس الأحبة نُعمًا
فما يحبس الراح التى أنت خلها ... وما يمنع الأوتار أن تترنما ؟ !

إنها أرق تحية وأنضرها وأبهاها ، تنساب كما تنساب الحياة التى يحملها الربيع إلى عروق الورود والرياحين ، وتدب فى النفس كما تدب نضارته فى الأشجار . وقد اختار الألفاظ اختياراً بارعاً يتم به لهذا الجو همسه ورقته ؛ فالغسق ، والنوم ، ومكتم الحديث ، والوشى المنمنم ، وأنفاس الأحبة ، والأوتار المترنمة – كل هذه مواد البناء لهذه الصورة الفنية ، وما أبرع شاعرنا من بنّاء ! .

على أن البحترى يحب الطبيعة ، وإن قست عليه ؛ فإذا ناله المطر بأذى عبر عن هذه الحال تعبيراً رقيقاً وديعاً[1] ، ديدنَه حين يتغنى بالطبيعة فى جميع مظاهرها وموجوداتها . وهو أبعد ما يكون عن تمثيل طبعه حين يصطنع سبيلا غير هذه . ومثل هذا قصيدته :

سلام عليكم لا وفاء ولا عهد ... أما لكم من هجر أحبابكم بد ؟

فهو فى هذه القصيدة ، وإن أعلن مطلعها عن رقة الشاعر البالغة ، يصطنع الأسلوب الجاهلى ؛ فيقف بالأطلال ، ويفخر بشجاعته وبأسه ، ويصف الذئب على طريقة امرئ القيس فى وصف الفرس ، بأضلاعه ومتنه وذنبه ، ويقول أنه لقيه فى الليل فأرداه ؛ ثم أوقد النار واشتواه . ويبدو تأرجحه بين الطبع والتقليد فى مثل قوله :

طواه الطوى حتى استمر مريره ... فما فيه إلا العظم والروح والجلد
يقضقض عصلا فى أسرتها الردى ... كقضقضة المقرور أرعده البرد
سما لى وبى من شدة الجوع ما به ... ببيداء لم تعرف بها عيشة رغد

(١) راجع الأبيات التى أولها : تركتك لما استوقف الدجن ركبه ... علينا وطار البرق خوفاً من الرعد

ويظهر التكلف فى مثل قوله :

فخرّ وقد أوردته منهل الردى على ظمأ لو أنه عَذُبَ الوِرْدُ
وقت فجمّعت الحصى فاشتويته عليه وللرمضاء من تحته وَقْد
قبلت خسيساً منه ثم تركته وأقلعت عنه وهو منعفر فرد

إنها لا ريب معانى القدماء يلفق بينها حين يجول فى غير ميدانه ، ويستعير الأسلوب البدوى العتيق ، وما درى أن مقامه بالشام والعراق وعيش الحضارة قد أوهن ما بينه وبين البادية من صلة ، وأن شعره ينم عن هذا التكلف حين يبالغ مبالغة الحضريين فيقول : إن الذئب ليس به لحم ، ثم يعود فيزعم أنه اشتواه وأكل منه قليلا ، وترك الباقى ؛ فهو إذاً موفور اللحم ! .

أما الفرس فقد انطلق فى وصفه على سجيته فجلاه كما تجلى العروس ، وألبسه لباس الزينة والحسن ، وإن لم يبرأ من التأثر بالقدماء ، وهذا طبيعى .

ومن أوصافه التى يتأثر فيها بالقدماء فيحسن قوله :

يهوى كما تهوى العقاب وقد رأت صيداً وينتصب انتصاب الأجدل

ثم يقول بعد هذا مباشرة منطلقاً مع طبعه الرقيق :

تتوهم الجوزاءَ فى أرساغه والبرقَ فوق جبينه المتهلل

ويقول بعد قليل من وصفه لمحاسنه :

هزج الصهيل كان فى نغماته نبرات معبد فى الثقيل الأول
ملك العيون فإن بدا أعطينه نظر المحب إلى الحبيب المقبل

وكان طبيعيا أن يتأثر البحترى بعصره الذى تسود فيه عوامل القديم مع عوامل الجديد ؛ فيجذبه القديم إليه ، لكنه لا يلبث أن ينصرف إلى الجديد ، وأن يَطبعه بطابعه .

ومهما يكن من شىء فقد امتثل البحترى الصور القديمة ، وأداها فى أسلوب شعرى بارع ، وأضفى عليها من روحه الرقيقة ، وبدت فى شعره عناصر الحب والروعة والجمال .

١٠
ابن المعتز

وابن المعتز يحب الطبيعة يفتن بها لا ريب . لكنه حين يتعلق بها تستهويه الصورة قبل كل شىء ، فيعنى برسم الشكل الخلاب . وشعره آيات على إرهاف حاسة البصر ، وحسن استقباله

للألوان والأشكال ، ودقة إخراجه للصور والأمثال . وهو فى إخراجه للصور يحتال ويتألق ويتأنق ، ويكتفى بالإشارة عن الإطناب ، ويستخدم براعات عجيبة .

ولعنايته بالشكل كان تعلقه قويا بالسماء ومصابيحها الباهرة . فإذا حجبت الشمس وراء السحب صورها هذا التصوير الدقيق .

كأن الشمس يوم الغيم لحظ مريض مدنف من خلف ستر

فعلق النفس بالمشبه به أكثر مما علقها بالمشبه كعادته .

ويمثل حسن الهلال تمثيلا مترفاً بهيا فيقول :

انظر إلى حسن هلالٍ بدا يهتك من أنواره الحندسا

كمِنجل صِيغ من فضة يحصد من زهر الدجى نرجسا

فيستخدم فى مقام الهلال الأبيض الفضةَ البيضاء ، والنرجس الأبيض ، والنجوم البيضاء ؛ ويرضى حاسة البصر والتعبير عن اللون كل الإرضاء .

وقد يجمع صورة بدوية إلى صورة حضرية تكمّل إحداهما الأخرى ؛ كتمثيل الثريا فى إسراعها بالهودج فوق الناقة يسرع بها الحادى ، وفى بريقها بزجاجات الزئبق المترجرج ، فيؤدى حق البياض والحركة الموضعية بالزئبق المترجرج ، وحق السرعة بالناقة :

كأن الثريا هودج فوق ناقة يحث بها حاد إلى الغرب مزعج

وقد لمعت حتى كأن بريقها قوارير فيها زئبق يترجرج

وقد بات ، من شدة ما يلحظ النجوم والقمر ، قديراً على أن يحدد موعد زيارة الحبيب له بأشكالها وأوضاعها فى السماء تحديداً دقيقاً ، على نحو تبرز فيه الألوان أتم بروز :

زارنى والدجى أصمُّ الحواشى والثريا فى الغرب كالعنقود

وهلال السما كطوق عروس بات يجلى على غلائل سود

وكيف لا يقدر على ذلك ، وهو يرعى النجوم فى الليل وتمتزج بها نفسه ، فيرنو إليها ويخالها ترنو إليه ! ولعله قد أشفق على النسر ، لكثرة ما راقبه من هذا التحويم المتصل الذى لا يؤدى إلى صيد أبداً ، فقال :

مازلت أرعى كل نجم غائر وكأن جنبى فوق جمر موقد

ورنا إلىَّ الفرقدان كما رنت زرقاء تنظر من كتاب أسود

والنسر قد بسط الجناح محوماً حتى القيامة طالباً لم يصطد

وقد مثل القمر بين النجوم فى ثوب بديعى مزركش ، وجعله صاحب عطايا ومنح ، وأضفى عليه أبهة الملك ، أو صوره كما يحب لنفسه فقال :

قمراً بدا لك مشرقاً فى ليله حسر الدجى أذياله عن ذيله
خُلعت على الآفاق من أنواره خلع البياض فأومضت فى ليله
وإذا تقدم فى النجوم حسبته ملكاً تسير مواكب من حوله

على أننا لكى نفهم عناية ابن المعتز وفتنته بالنجوم ، يجب أن نذكر علم النجوم ومكانته فى ذلك العصر ، والميراث الجاهلى . ولعل أول من عنى من المحدثين بوصف النجوم محمد بن يزيد بن مسلمة ، فقد قيل : إنه «كان من أفصح المحدثين وأوصفهم للأزمنة والنجوم» .

ولفتنة ابن المعتز بالليل ، وما يتراءى فى سمائه من قمر وكواكب ونجوم ، حمل على الطريقة العربية القديمة فى ذكر الصبوح والإشادة به ، ودعا إلى الاغتباق والشراب فى ضوء الهلال ، لكن داعى الطبيعة فى الصباح وجمالها الباهر يهتف كذلك به فلا يلبث أن يستجيب لداعى الصبوح ، ويعلل الاستجابة تعليلا قوامه الفتنة بالطبيعة فى الصباح .

ثم فكر ابن المعتز فى الأمر حتى اهتدى إلى أن يجمع بين الحسنين ؛ فيمضى الليل إلى الصباح ، بل إلى طلوع الشمس ، فى الشراب ، ويذيب الشمس والقمر فى كؤوس الخمر ، قال :

ياليلة ماكان أطيبها سوى قصر المدى !
أحييتها وأمتّها وطويتها طىَّ الردا
حتى رأيت الشمس تتلو البدر فى كبد السما
فكأنها وكأنه قَدَحان من خمر وما

وكيف لا يفتن بالصبح وتنفسه ، وهو يتراءى له فى أشكال جميلة خلابة يجتمع فيها الأسود والأبيض ، اجتماعهما فى فرس دهماء بيضاء اللبب ، وتتمثل به فى ناظريه حالان : رقيقة زائلة ، وفتية ناهضة ؛ حال الليل الذاهب ، وحال النهار القادم :

والليل قد رق وأضفى نجمه واستوفز الصبح ولما ينتصب
معترضاً فى فجره بليله كفرس دهماء بيضاء اللبب

وقد يمثله تمثيلا صارخاً مكشوفاً نحو قوله :

والصبح يتلو المشترى فكأنه عريان يمشى فى الدجى بسراج

فهذا الصبح هو الحبيب الذى كشف عن جميع محاسنه فتعرى ، ثم زاد فى الكشف بتقديم سراج أمامه .

وكم تعلق بصره بالنجم يبدو فى حمرة الفجر كالسراج الأزهر ، فيتراءى لناظريه كالغرة فى وجه المهر الأشقر :

والصبح قد أسفر أو لم يسفر حتى بدا فى ثوبه المعصفر
ونجمه مثل السراج الأزهر كأنه غرة مُهر أشقر

فابن المعتز قد فتنته رقعة السماء بشمسها وقمرها ، وكواكبها ونجومها ، وبغروبها وشروقها ، وغسقها وشفقها ، فتأمل فيها وأكثر التأمل ، ثم رسم الأوضاع المختلفة لها ، والهيئات الجذابة لمظاهرها ، مكتفياً بالرسم الشكلى البديع فى غير عناية ظاهرة بفلسفة عالمها ، أو التعمق فى معانى وجودها .

وقد رأينا كيف جذبته طبيعة الأرض مع طبيعة السماء إلى الصبوح ، فتغنى بالطائر والبستان ، كما تغنى بالسماء والفجر . والواقع أن فتنته بأشكال الطبيعة الأرضية ليست أقل من فتنته بأشكال الطبيعة السماوية ، وأنه يستخدم أساليبه الفنية للتعبير عن هذه الفتنة كما استخدمها فى الأولى .

فهو حين ينظر إلى اللوز يتعلق بصره بشكله ثم يحتال لتمثيله فى طرافة فيقول :

ثلاثة أثواب على جسد رطب مخالفة الأشكال من صنع الرب
تقيه الردى فى ليله ونهاره وإن كان كالمسجون فيها بلا ذنب

وتهب هنا ريح غير شائعة فى شعره الطبيعى ، وإنما تأتى فى الأحيان ، فنحس بمعنى الإعجاب فى قوله : « صنعة الرب » ، وبمعنى الإشفاق فى : « تقية الردى » ، وبمعنى الأسى فى : « المسجون بلا ذنب » ، ويتمثل أمامنا ابن المعتز شاعراً يحيى الطبيعة ، وتتعلق بها نفسه ، فيجاوبها الشعور والإحساس ، ويشاركها البأساء والسراء .

ويبدو مثل هذا فى أوصافه للبسر أخضره وأحمره ، وحبة العنب ؛ ولولا عنايته التامة بالشكل ، وبالدقة فى تحديده ، ما اختار حبة واحدة لتصويرها .

ونحو هذا قوله فى صفة النرجس ، مع بيان للوقت وحال الروض بياناً يجعل الصورة تامة :

وعجنا إلى الروض الذى طله الندى وللصبح فى ثوب الظلام حريق
كأن عيون النرجس الغض بينه مداهن در حشوهن عقيق

إذا بلهن القطر خلت دموعها بكاء جفون كحلهن خلوق

وهذا يدل على فتنة وتعلق شديدين بالنرجس يظهران على نحو أتم فى قوله :

عيون إذا عاينتها فكأنما مدامعها من فوق أجفانها در

محاجرها بيض وأحداقها صفر وأجسامها خضر وأنفاسها عطر

فالتمثيل بالعين ، وجمع الألوان من أخضر وأصفر وأبيض ، والجوهر ، والعطر ، كل هذه آيات على الحب .

لكنه حين يمثله على هذا النحو ، لا ينتقص من جمال غيره ، كما فعل ابن الرومى ، وإنما يعجب بالورد ، ويسخر من سخرية ابن الرومى به . وليس الورد الأحمر وحده موضع الإعزاز ، بل الورد الأبيض كذلك ينال من عنايته ما نال سابقه .

ونحو هذا قوله فى المشمش ، ونذكر أن ابن الرومى قد هجاه كما هجا الورد ، جامعاً بين هوى النفس والعين :

ومشمش بان منه أعجب العجب يدعو النفوس إلى اللذات والطرب

كأنه فى غصون الدوح حين بدا بنادق خرطت من خالص الذهب

على أن ابن المعتز لا يجلى السماء بأعلامها والفاكهة والزهر فقط ، وإنما يعرض الحيوان كذلك هذا العرض الذى يعنى بالشكل ، وإبراز محاسنه وألوانه ، والربط بينه وبين أشكال أخرى أكثر فتنة وأبهى منظراً .

وأى شاعر يستطيع أن يجمل الفهد كما جمله ابن المعتز ، وأن يجليه ، فى مقام الصيد والفتك ، كما تجلى العروس الحسناء بقلائدها الذهبية ، ومنظرها الغض النضير؟

ولا صيد إلا بوثّابة تطير على أربع كالعذَب

ملّمعة من نتاج الرياح تريك على الأرض شيئاً عجب

تضم الطريد إلى نحرها كضم المحبة من لا يحب

إذا ما رأى عدوها خلفه تناجت ضمائره بالعطب

لها مجلس فى مكان الرديف كتركية قد سبتها العرب

ومقلتها سائـل كُحلهـا وقد حلّيت سُبحاً من ذهب

متى أطلقت من قلادتها وطار الغبار وجد الطلب

غدت وهى واثقة أنها تقوم بزاد الخميس اللّجِب

واحتيال ابن المعتز فى التصوير يظهر على أتمه فى هذه الأبيات ؛ إذ يجمع بين الحب والفتك ، ويمثل الفهدة هذا التمثيل البارع . وقد أدت عناية ابن المعتز بتمثيل الحيوان على هذا اللون إلى نشر هذا الفن على نحو واسع فى العربية . ولعل أبا بكر بن العلافِ كان متأثراً به حين عنى بالهر عناية كبرى ، ووصفه فى قصائد طويلة ، كما يصف حياة البطل المغوار ، ورثاه رثاء مستفيضاً [1] . وقد يتناول ابن المعتز معانى القدماء فى الحيوان ، فيجليها على طريقته الخلابة ، كقوله فى صفة حمار الوحش مع أتنه :

شغلتــه لـواقـح ملأتــه غيرة فهو خلفهن كَمِى
قابض جمعها إليه كما يجـــــمع أيتامه إليه الوصى
كلما شم لافحاً شم منها رأس فحل برجلها مفلى
خارج من ظلال نقع كما فرّ ق جلبـــابـــه الغوى
قد طواها التسويق والشد حتى هى قُب كأنهن القسى
هربت من رؤوسهن عيون غـائرات كـأنهن الرُّكى

ولا ريب أن وصف حمار الوحش الضامر ، يرعى أتنه ويضمها إليه ويكلأها ، من المعانى القديمة ، لكن ابن المعتز استطاع أن يبدى فنه الخلاب فى صورة الوصى يجمع اليتامى إليه ، وشم رائحة الفحل ، وتفرق النقع كما يفرق الغوى الجلباب ، وهرب العيون من الرؤوس ، وما إلى ذلك من البدائع الفنية .

ومن القديم الذى يلبس عنده لباس الجديد أوصافه للفرس والناقة فى الطبيعة الحية ، وللسحاب والبرق فى الطبيعة الصامتة ، واستخدامه لطريقة القدماء فى الصيد والقنص مع إلباسها لباساً فنيًّا بديعاً .

وكان فى جميع هذه الأوصاف يعنى بالصورة والشكل ، وإن اصطنع شيئاً من أساليب القدماء معارضة لهم ، وسيراً على مناهجهم .

ولم يعدم ابن المعتز جمال الصورة فى الحية الرقطاء أيضاً ، ومن طريف هذا قوله :

أنعت رقشاء لا تحيى لديغتها لو قدّها السيف لم يعلق به بلل
تلقى إذا انسلخت فى الأرض جلدتها كأنها كُمُّ دِرع قَدّه بطل

(١) نهاية الأرب للنويرى : ج ٩ ص ٢٩٣-٢٩٩ .

فابن المعتز مفتون بالطبيعة ، يرى فيها صوراً جذابة ، وأشكالا بهية : فى سمائها ، فى أشجارها ، فى زهورها ، فى حيوانها ، بل فى أفاعيها !

١١

وبعد ، فهل هذا الجديد أجنبى المصدر أم عربيه ؟؟

إن هذا العرض لشعر الطبيعة فى هذا الدور يكفى وحده للإجابة عن هذا السؤال ؛ فالقديم يصحب الجديد ، وعناصر الجديد تأتى تطوراً طبيعيًّا لبعض عناصر القديم . وهذا التطور جزئى لم يخرج عن الحدود العامة القديمة ، بل لازمها ودار فى نطاقها ؛ كما أنه وجد فى جميع العصور الأدبية إلا حين يقف به ، أو يتأخر ، الجمود . ولو أن الشعر العربى تأثر بعوامل أجنبية لاصطنع فنون الشعر الأجنبى ، ولم يقف عند الفنون العربية الضيقة . حدث هذا حين تأثر الرومان باليونان ، فاصطنعوا أساليب أدبهم ، وحين تأثر الطليان بالرومان فى عصر النهضة ، وحين تأثرت شعوب أوربا بهم ، وحدث فى الحركة الأدبية لعصر « الرومنتسزم » ؛ إذ كانت دورتها تتم فى بلاد أوربا المختلفة . أما الشعر العربى فقد بقى فى أصوله عربيًّا فى العصر العباسى ، كما كان عربياً من قبل ، وكما ظل عربياً إلى العصر الحديث .

والعرب أنفسهم قد وضعوا الأدب بمعزل عن العلوم الحديثة التى نقلوها ؛ فقالوا علوم عربية وعلوم أجنبية ، وذكروا الشعر فى الأولى . وهذا الجديد أو البديع ، كما يحدثنا علماء العرب وشعراؤهم لذلك العصر نفسه ، عربى الجملة والتفصيل . قال الجاحظ عَلَم النثر والنقد فى القرن الثالث : « والبديع مقصور على العرب ، ومن أجله فاقت لغتهم كل لغة ، وأربت على كل لسان[1] » . وهذا نص قاطع الدلالة فى هذا الباب . وابن المعتز أحد أعلام الشعر لذلك العصر يؤلف كتابه « البديع » ، ويجعل غرضه من تأليفه : « إثبات أن المحدثين لم يسبقوا المتقدمين إلى شىء من أبواب البديع[2] » . واقتنع ، ويقتنع معه قارئ الكتاب ، بأنه أدى الغرض وزيادة ، وأرجع فى كتاب آخر له أوصاف الخمر إلى الأعراب ، وأظهر تأثر المحدثين بهم وبالأعشى الجاهلى[3] . وابن منظور ينقل من بعد أوصافاً لشعراء الأعراب فى الليل ،

(١) البيان : ج ٣ ص ٢٤٢ .

(٢) كتاب البديع لابن المعتز : ص ٣ .

(٣) فصول التمائيل فى تباشير السرور ؛ ط الكردى سنة ١٩٥٢ : ص ٧ - ١٢ و٣٠ - ٣١ و٣٨ و٤٥ .

والنهار ، والشمس ، والسحب ، والنجوم ، تجعلنا نقدر عرب البادية من ناحية أنهم مرجع فى هذا الفن ، كما قدرناهم من قبل فى باب الرجز[١] ، وتدل كذلك على تأثر المحدثين بعديّ بن زيد وبالأعشى فى باب الخمريات .

وقد أشرنا ، فى دور التقليد ، إلى أصول هذا الفن الحديث ، من العناية بالألوان ، والنظم ، والبديع ، كما أشرنا إلى طرف منه فى هذا الباب . وفى هذا كله ما يكفى لإثبات أن الجديد تطور طبيعى للقديم . ولو صحت الأشعار التى تنسب إلى الأعراب ، لكان فضلهم فى هذا الباب كبيراً . فلا ريب أن الأعرابى قد أربى على الغاية حين وصف الشمس مثلاً ، فقال :

مخبأة أما إذا الليل جنها ... فتخفى وأمّا بالغدوّ فتظهر
إذا انشق عنها ساطع الفجر وانجلى ... دجى الليل ، وانجاب الحجاب المستّر
وألبس عرض الأرض لوناً كأنه ... على الأفق الشرقى ثوب معصفر
بلون كزرع الزعفران يشوبه ... شعاع يلوح فهو أزهر أصفر
إلى أن علت وانشق منها اصفرارها ... فلاحت كما لاح المنيح المشهر
ترى الظل يطوى حين يعلو وتارة ... تراه إذا مالت الأرض ينشر
وتدنف حتى ما يكاد شعاعها ... يبين إذا غابت لمن يتبصر
فأفنت قروناً وهى فى ذاك لم تزل ... تموت وتحيا كل يوم وتنشر[٢]

لقد قص حديث الشمس فى أسلوب موجز ونظم بديع ، ضم المقومات العصرية ؛ من عناية بالبديع ، واختيار فى النظم ، ودقة فى الالتفات ، وجمال فى الأسلوب .

ومن آيات هذا ثقافة الشعراء المحدثين أنفسهم ؛ فبشار زعيم المحدثين يقول إنه لم يقل الشعر إلا بعد أن حفظ من الأراجيز أربعة عشر ألفاً عدا ما حفظ من القصائد ، وكان مغرباً ظفر برضا أصحاب الغريب . وأبو نواس كانت له أراجيز تدل على تمكنه اللغوى ولون ثقافته ، كما كان تأثره بالأعراب والقدماء واضحاً . وأبو تمام تدل حماسته على نوع ثقافته العربية الخالصة ، كما تدل حماسة البحترى على مثل ذلك . وابن المعتز أرجع الجديد إلى القديم كما تقدم ، ودل بكتابه على تأمله الشديد فى هذا القديم . وابن الرومى قد برهنت دراسة شعره على تقليده ، كما

(١) تثار الأزهار : ص ١٣ و ١٠٤ و ١٠٨ و ١١٠ .
(٢) تثار الأزهار : ص ١٤ .

مدح العرب واعتز بهم ؛ فإن كان رومى الأصل ، كما يقول البعض ، فقد زالت عناصر هذا الأصل فى هذا المحيط العربى ، كما زالت عناصره عند كثيرين غيره ، وغلبت عوامل الحاضر القريب ، فى المولد والنشأة ، عوامل الماضى البعيد فى الأصل والجنس .

والواقع أن الأعاجم الذين تبوأوا مكانة رفيعة فى الأدب والسياسة للعصر العباسى قد رحلوا إلى البادية أو استمعوا إلى الأعراب ، وامتثلوا الشعر العربى والأدب العربى امتثالا ، وامتازوا فيهما وسبقوا غيرهم من العرب . ولم يكن هذا غريباً ما دامت الدراسة هى السبيل إلى التفوق فى الأدب . وقد دعا أعلام الكتابة من هؤلاء الأعاجم ، وعلى رأسهم عبد الحميد الكاتب ، إلى التبحر فى الشعر العربى ، والغريب ، وأيام العرب ، على أنه وسيلة للتبريز فى الأدب .

وكان المجددون كالجاحظ يدعون إلى الاحتفاظ بالعربية ناصعة ، وألا يصطنع الأدباء أساليب المتكلمين ، وألا يدخل الشعراء ألفاظاً أجنبية فى أشعارهم إلا بقدر ، كما صنع أبو نواس والأعشى من قبله .

* * *

فتطور شعر الطبيعة لذلك العصر كان طبيعيًّا تقتضيه الحضارة الجديدة ، وكان الأعاجم أصحاب حظ فيه بقدر ما ساهموا فى بناء هذه الحضارة أو أثروا فيها . والحضارة وثيقة الصلة بتطور هذا الفن الشعرى . ذلك بأنها تقدم من الصور والتماثيل للطبيعة ما يزيد الشعور بجمالها ، وما يقدم للشعراء نماذج فنية تساعد على التجويد والإتقان ، كما كان للأعاجم حظ فى صرف العرب عن ماضيهم وفتنتهم بالحاضر الباهر فتعلقوا به ، وأقبلوا عليه يجلون محاسنه ، حتى رأينا من العرب أمثال الفيلسوف الكندى الذى ينكر المثل العليا البدوية ، ويهيم بالحاضر الحضرى ! .